إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد الثامن – شتاء ۱۳۹۱ش/ كانون الأول ۲۰۱۲م
صص ۳۳ ـ ٥٤

الحريّة الروحيّة فی منظر میخائیل نعیمه وطرق الوصول إلیها

سردار اصلانی*

افسانه خواجه گودری**

الملخص

الحريّة من أجمل الكلمات فی القاموس البشریّ وهی بمعنی القدرة علی التصرّف بملء الإرادة والاختیار مع صیانة حقوق الناس فی الغرب، وإضافة إلی هذه تضاف حقوق اللّه والناس فی الإسلام أیضا.والحريّة ضربان: الأول منهما الحريّة الاجتماعیّة، هی أن یکون الإنسان حرّا فی تصرفاته الفردیّة والاجتماعیة؛ أی لم یکن الآخرون مانعین فی سیره نحو نموّه وأهدافه عن طریق حَبسه وإجباره أو استثماره أو استخدامه فی الأمور. أما الثانی منهما فالحريّة الروحیّة؛ فمعناها یرجع إلی نفس الإنسان بحیث أن تکون نفسه حرّة من کل القیود السلبیة الرادعة. وهناک صلة وثیقة بین الحريّة الروحیّة والحريّة الاجتماعیّة. وعندما یصل الإنسان إلی الحريّة الروحیّة فحینئذ ستحقق له الحريّة الاجتماعیّة. فی المقال هذا، ندرس آراء نعیمه حول الحريّة المثالیّة والطُرق التی سَلْکها تهدی الإنسان المفتّش عن الحريّة إلیها فی آثاره فی المنهج الوصفی ـ التحلیلی. ونحاول أن نبیّن عوائق الوصول إلیها أیضا. والهدف الرئیس لهذه الدراسة کیفیة اقتراح نعیمه للوصول إلی الحريّة.

الكلمات الدليلية: میخائیل نعیمه، الحريّة الروحیّة، المعرفة، الإیمان، الرذائل الأخلاقیة.

---

*. جامعة إصفهان، إیران. (أستاذ مساعد). Aslani@fgmui.ac.ir

**. جامعة إصفهان، إیران. (خریجة مرحلة الماجستیر).

التنقیح والمراجعة اللغویة: د. حسن شوندی

تاریخ الوصول: ۱۳۹۱/۱۰/۹هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۹۱/۱۱/۱هـ. ش

Archive of SID
www.SID.ir

المقدمة

نرى فى رؤية الأدباء والعلماء والفلاسفة تقديم الحريّة بشتّى الطُرق. قد ظهر نعيمه فى العصر الذى يملأ جوّه بالدعوة إلى الحريّة، فطبيعىّ أن نراها عنده أيضا.

والحريّة هى الهدف الأسمى التى تهدفها الكائنات كلّها وفى رأسها الإنسان. وهو يستطيع الوصول إليها عن طريق الوصول إلى معرفة الإنسان نفسه، بحيث توصله إلى معرفة اللّه، وهذه المعرفة هى الإيمان بعينه، فالمعرفة والإيمان أهّم طُرق الوصول إلى الحريّة الروحيّة.

نتحدّث فى المقال هذا بعد إشارة عابرة إلى حياة نعيمه وعزلته وآثاره مع الاهتمام بمنزلته السامية، عن أسس الحريّة عنده للوصول إلى هذا المهّم وروادع الوصول إليها. فالمعرفة من أهمّ الطرق فى سبيل الحريّة الروحيّة؛ لأنّه عندما يعرف الإنسان نفسه يحررّها من كلّ القيود. وأمّا الإيمان فهو من أهمّ طرق الوصول إليها أيضا. فنرى عندما يصل الإنسان إلى الإيمان الحقيقى فهو سيحرّر من قيد سائر العبوديّات. بعد ما سبق من القول، فإن هدفنا من اختيار هذا الموضوع هو تعريف الحرية الروحيّة من منظار نعيمه وسُبل الوصول إليها وعلى إثرها مساعدة المجتمع الإنسانى فى معرفة الأزمات الفكرية والاجتماعية، ومساعدتهم للوصول إلى الحريّة الروحيّة، لأنّها مقدمة للحريّة الاجتماعية. والمحور الأساس لهذا المقال هو معرفة رؤية نعيمه عن الحريّة وأساسها عنده واكتشاف طرق الوصول إليها.

خلفيّة البحث

الحرية الروحية من أهمّ الموضوعات التى قد بحثت مرّات كثيرة. فقد دُرست آثار ميخائيل نعيمه فى بعض المواضيع، وطبعت مقالات حول أدبه؛ منها: أطروحة "صلة الأدب بالأخلاق فى آثار ميخائيل نعيمه" لعلى أحمدى نوقشت فى جامعة أصفهان بإشراف الدكتور سردار اصلانى. كما كتبت المقالات الكثيرة حول هذا الأديب وأدبه منها: «آراء ميخائيل نعيمه النقدية» لـ «حسن دادخواه، وسكينه پرهيزگارى»، "فى غربال ميخائيل نعيمه" لـ "حبيب زحلاوى"، و"مقارنة أدبية بين "العقاد" وديوانه و"ميخائيل نعيمه" و"غربااله" تأليف "قاسم مختارى، ومريم بخشنده" و"ميخائيل نعيمه

Archive of SID

www.SID.ir

منهجــه فی النقد واتجاهه فی الأدب" لـ "بــدوی طبانه"، وأما عن الموضوع هذا فلم نعثر علی بحث أو کتاب.

نبذة عن حیاة میخائیل نعیمه وآثاره الأدبیة

أطــلّ میخائیل نعیمه علــی هذا العالم فی ســنة ۱۸۸۹م فی قریة بســکنتا فی لبنان. قام منذ طفولته بکســب اللغة والأدب والعلم فی شــتی الفروع. له صلة وثیقة «بنســیب عریضه» فی رأس مجلّة «الفنون» فراح نعیمه ینشر مقالات فیها، وعندئذ مال إلی جمعیّة «التیوصوفیة» الفکریة الفلســفیة واســتخدم هذه الآراء فی التقمــص، ومیزان الثواب والعقاب والخیر والشرّ. وفی سنة ۱۹۲۰م أنشئت الرابطة القلمیة التی من أهدافها الثورة علی الجمود والتقلید والدعوة إلی الإبداع، وفی رأسها «جبران خلیل جبران»، وانتخب نعیمه مستشارا لها. ویقول نعیمه فی مقدمة قانون هذه الرابطة: «إن هذه الروح الجدیدة التی ترمی الخروج بأدابنا من دور الجمود والتقلید إلی دور الإبتکار فی جمیل الأسالیب والمعانی، الحریّة فی نظرنا بکل تنشــیط ومؤازرة، فهی أمل الیوم ورکن الغد.» (خفاجی، ۱۹۸٦م: ۳۹۱) بعد هذه النشاطات الأدبیة، اختار لنفسه صومعة فی «الشخروب» لبعده عن فوضی المدنیات. قصــده من هذه العزلة علی حدّ تعبیره: «التأمّل، وغربلة الماضی، وتعریــة النفس، وفتح کوی الروح لنور اللّه.» (نعیمه، ج۲، ۱۹۷۱م: ٤۹) فهدفه من هذه العزلة سوی ما قاله نفسه هو التفکیر فی حقائق الکون وتزکیة النفس ومعرفة اللّه تعالی وهذه کلّها ما قرّبه إلی الحریّة الفردیة، فلاشکّ فی أنّه رجل حرّ. وفی إثبات هذا الکلام، جدیر أن نشــیر إلی شــخصیته بأنّه یکــره الدنیا وظواهرها کالمال، کما یکره الحســد والبغض والطمع وغیرها من الصفات الرذیلة التی تعرقل وصول الإنسان إلی الحریّة.

وأمــا حیاة نعیمه فی مجــال الأدب فهی حیاة مثمرة قیمّة. له أکثر من ثلاثین مؤلفا فی شــتی فروع الأدب منها القصّة والمسرحیة والأمثال والمراسلة والمقالات الأدبیة والنقد الأدبی والنقد الاجتماعی الذی نراها فی ما کتبه:

۱. فی فنّ المقالة: زاد المعاد (۱۹۳٦م) والبیادر (۱۹٤٥م) والأوثان (۱۹٤٦م) وصوت العالم (۱۹٤۸م) والنّور والدّیجور (۱۹٥۰م) وفی مهبّ الرّیح (۱۹٥۳م) ودروب (۱۹۳۲م) وأبعد من موسکو ومن واشنطن (۱۹۷٥م) والمراحل (۱۹۳۲م) ومقالات متفرّقة.

www.SID.ir

٢. فى فـنّ القصص: أكابـر (١٩٥٦م) ومذكّرات الأرقش (١٠٤٩م) ولقاء (١٩٤٦م) ومِـرداد (١٩٥٢م) واليـوم الأخـير (١٩٦٣م) ويـا ابـن آدم (١٩٦٩م) وكان ما كان (١٩٢٧م) وأبوبطّة (١٩٥٨م) وهوامش (١٩٦٥م).

٣. فى فنّ المسرحيّة: الآباء والبنون (١٩١٧م) وأيّوب (١٩٦٧م).

٤. فى فنّ النّقد: الغربال (١٩٢٣م) وفى الغربال الجديد (١٩٧٣م).

٥. فى فـنّ السّـيرة والتاريخ: جـبران خليل جبران (١٩٣٤م) وسـبعون (فى ثلاث مجلّدات) (١٩٧٩م).

٦. فى فنّ المثل: كرم على درب (١٩٤٦م).

٧. فى فنّ المراسلة: رسائل (١٩٧٤م).

٨. فى فنّ الشعر: همس الجفون (١٩٤٥م).

٩. فى فنّ التأمّل: من وحى المسيح (١٩٧٤م).

وقد عُنيت دار العلم للملايين فى بيروت بنشـر «المجموعة الكاملة» لآثار ميخائيل نعيمـه ما بين (١٩٧٩م) و(١٩٨١م) فى تسـعة مجلّدات ضخمـة. (الفاخورى، ١٩٨٦م: ٣٧١)

الحريّة الروحيّة عند ميخائيل نعيمه

بسـبب اغتراب الأدباء المهجريين وحنينهم واتّصال روحيّتهم الشرقية بمادية الغرب أثر كبير فيما يؤدى إلى القلق الروحى والحيرة النفسية فى نفوسهم، فهذا الأمر دفعهم إلى شتى الفنون: الحرية، الحنين إلى الوطن، الفخر بالشرق والعرب، والتغنى بالله والإنسان، ومعالجة الحياة والموت ووصف الطبيعة، والتسـاؤل والتأمل، والحزن والألم. (خفاجى، ١٩٨٦م: ٣١٤ـ٣١٠)

وأمـا الحرية فميخائيل نعيمه كثيرا ما يهتمّ بالحريّة الروحيّة فى آثاره الأدبيّة، وقليلا ما يهتم بالحريّة الاجتماعيّة. ومحور حريّته هو الإنسان، إنه يستطيع أن يكون حرّا وإن يكن فى سـجن خلف الحصون المنيعة. «من أهمّ أهداف الأنبياء هو الحريّة الروحيّة أو بتعبـير آخر تهذيب النفس أى الحريّة الروحيّة» أيضا (مطهرى، ١٣٨٤ش: ٤٠)، من ثمّ

Archive of SID

www.SID.ir

الحریّة التی یهدفها نعیمه حریّة قیّمة سماویّة. إنه أدیب رسالی، ورسالته نحو الفضائل الأخلاقیة السامیة کالحریّة والمعرفة والإیمان ونفی الأخلاق السّیئة. فیعتبر الحریّة الهدف الأفضل للإنسان؛ لأنّه یولد حرّا لیعیش حرّا، کما یقول: «الإنسان للحیاة لا للموت. وللمعرفة لا للجهل. وللحریّة لا للعبودیّة.» (نعیمه، مذکرات الأرقش، ۱۹۷۱م: ۷٦) ففی رأیه الحریّة أولی من العبودیّة وهذه فکرة متجاوبة مع الإسلام وروّاده. ویقول نعیمه فی هذا المجال: «ما ولد الإنسان لیکون رقیقا. وهو أبدا یحلم بالانعتاق من کلّ أنواع الرقّ. وستکون الحریّة نصیبه فی النهایة.» (نعیمه، ۱۹۷۵م: ۱۸۳)

الحریّة التی یرسمها لنا نعیمه لاتوجد فی دساتیر الدول، بل مأوی هذه الحریّة هو قلب الإنسان؛ «وإن الحریّة لیست فی تحطیم حکم وترکیز حکم. بل فی بناء قلب الإنسان وفکره ووجدانه وإرادته بناء لامجال فیه للظلم والاستبداد والاستعباد. فالمجتمع الصالح لایقوم إلا بأفراد صالحین. مثلما لایقوم البناء الجمیل إلا بحجارة جمیلة. والعدل والحریة لاینبعان من القانون، بل من القلب والفکر اللذین هما مصدر کلّ خیر وشرّ. فمن شاء أن یبنی للإنسان عالما یسوده العدل وتظلّله الحریّة علیه أن یبنیه أوّلا وآخرا فی قلب الإنسان وفکره.» (نعیمه، دُروب ۱۹۷۱م: ۵۲ـ۵۱) فلیس فی اختیار أی قانون أو دولة أو حکم أن یحدّد الحریّة بل اختیار هذا التحدید بید القلب وصفاء روحه وخلوصه وعدالته. کما یقول: «علّمتنی الحریّة أن أطلبها فی روحی لاضمن سیاجات الناس. وأفهمتنی أن أفقر الناس أکثرهم سیاجات وأشدّهم عبودیّة مَن ظنّ أن فی وسعه أن یستعبد سِواه وأضعف الممالک أوفرها جنودا وأضخمها أساطیل. وأذلّ الأمم أمّة تتوهّم أن فی طاقة أمّة أخری أن تسلبها أو أن تهبها الحریّة.» (نعیمه، زاد المعاد، ۱۹۷۲م: ۲٦) فالحریّة التی یعتقد بها بعیدة عن القیود والحدود من ثم تختلف حریّته عن الحریّة التی یحتاج إلیها المجتمع الإنسانی وهی تشمل بعض الحدود والقیود. أمّا نعیمه فاعتقد بالحریّة المطلقة التی نستطیع أن نقول ستحقق فی عالم الخیال لا فی عالم الواقع، فحریّة نعیمه حریّة مثالیّة فی عالم الخیال لا عالم الواقع.

وهکذا خلق الإنسان مختارا حرا فی أدب نعیمه، بمعنی «أنه أعطی فکرا وإرادة. فلیس الإنسان فی أعماله کالحجر تدحرجه فیتدحرج ویسقط متأثرا بجاذبیة الأرض

www.SID.ir

دون أن تكون له أية إرادة، أو كالنبات ليس له إلا طريق واحد فبمجرد توافر شروط معينة ينمو بالشكل المعتاد. أو كالحيوان الذى يؤدى أعماله بتأثير غريزى، كلّا إن الإنسان يجد نفسه دائما على مفترق طرق ليختار منها أيها شاء بملء حريته ووفق مشيئة ونوعية تفكيره وليس مجبورا على سلوك أحدها لاغير وإنما الذى يعين أحد الطرق هو أسلوب فكره واختياره.» (المطهرى، ١٤٠٤ق: ٥٧)

طرق الوصول إلى الحريّة الروحية فى أدب نعيمه

الف) المعرفة

من الأهداف السامية التى يطلبها الإنسان هى الوصول إلى قمّة الحريّة، ولها طريق وهى "المعرفة" كما يرى نعيمه: «أن الحريّة لاتكون إلا بالمعرفة.» (نعيمه، النور والديجور، ١٩٧٣م: ٤١) فعندما يعرف الإنسان كلّ شيء فهو يكون سيّد ما يعرفه فعندئذٍ هو حرّ ولايحتاج إلى معرفة شيء، كما صرّح نفسه "أنا طالب معرفة" فواضح أنّه يطلب من وراء هذه المعرفة الحريّة. لاحظنا خلال سيرنا فى آثار نعيمه، إنه يحارب نفسه محاربة للوصول إلى المعرفة والحقيقة.

يعتبر نعيمه غاية عمر الإنسان هو الوصول إلى ذروة المعرفة. التى «لاتنال فى مدرسة أو مدارس. ولا فى فسحة معلومة من العمر. لا ولا فى عمر واحد. بل نحن نلتقطها ـإذا عرفنا كيف نلتقطهاـ فى كلّ لحظة من وجودناـ فى اليقظة والمنام، فى الوطن والغربة، فى الحياة والموت.» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٤٧)

معرفة النفس أساس للمعارف الأخرى؛ لايزال يدعو نعيمه إلى محاسبة النفس وتطهيرها، وهى من أهم الطرق التى اتّخذها للغلبة على موانع الحياة وغربلة ماضيه وزواله الشهوات والرذائل. عندما يسيطر الإنسان على نفسه يستطيع أن يعرفها معرفة كاملة وعندئذ تفتح له أبواب معرفة هذا العالم وخالقه. يبدأ كل شيء بنفس الإنسان. عندما يعرف الإنسان نفسه سيجد فيها كلّ شيء، وكلّ إنسان. عندما يفوز الإنسان بالخوض فى خفايا نفسه يجد مفتاح أزماته فى عالمه الخارجىّ. يقول سقراط: "اعرف نفسك"؛ فيذهب نعيمه عندما الإنسان يسأل نفسه "مَن أنا؟"، فى الحقيقة، جوابه على

www.SID.ir

هذا السؤال تقدمة لمعرفة القصوی أو بتعبیر آخر هو معرفة الکون.

وستحقق معرفة "أنا" بالغوض فی التفکیر والتأمّل العمیق. یری هذا الأدیب عمر الإنسان فرصة لِکسب المعرفة التی تؤدی إلی الثروة والمجد والعزّة. وإن عزّة نفسه لتأبی علیه أن یکون نکرة. فَویل ألف ویل علی النفس التی تکون نکرة غیر معرفة. بین الحرّیة والمعرفة صلة وثیقة بحیث عندما یسلک الإنسان طریق المعرفة ففی النهایة یصل إلی الحرّیة، وعندما یقطع الإنسان طریق الحرّیة فیستطیع الوصول إلی المعرفة، فالحرّیة والمعرفة رفیقان متلازمان، «المعرفة هی الطریق المؤدی إلی الحرّیة. فحیث لامعرفة لاحرّیة وحیث لاحرّیة لامعرفة» (نعیمه، فی مهب الریح، ۱۹۷۲م: ۷۳ـ۷۲)، إذ مبدأ الحرّیة هو المعرفة والمعرفة الکاملة هی عین الحرّیة. إنه یعتقد: «المعرفة وحدها المعرفة الشاملة، الکاملة هی الحرّیة. والحرّیة وحدها هی المعرفة. أما بعض المعرفة وبعض الحرّیة فضرب من العبودیّة الغنیّة أبدا بالأزمات والمشکلات والنزعات ومختلف صنوف الویلات. والحرّیة منها براء.» (نعیمه، الیوم الأخیر، ۱۹۷۲م: ۱۳۲ـ۱۳۱)

إنه یقترح لکسب المعرفة طریقین: أحدهما طویل ومتعرّج وشائک جدّا. ولکنّ فی منعطفاته وبین أشواکه من یدفع المناظر والریاحین ما بدفع السائر فیه علی السیّر أبعد فأبعد. فلاینتهی إلی المعرفة. بل ینتهی إلی الموت. ذلکما هو طریق معرفة الخیر والشّر. إنّه طریق مسدود. إلا أنّه، بالنتیجة، یؤدّی إلی المعرفة عندما یقنط منه السائر فیه فیعود یفتّش عن الطریق الآخر. وأنا أحذّرکما منه لأنکما، إن سلکتماه، فسیکون اتکالکما علی نفسیکما لا علیّ. أمّا الطریق الثانی فأقصر من الأوّل بکثیر. ولیس فیه من المغریات مثل ما فی الأوّل. والذی یسلکه لایتّکل علی نفسه بل علیّ. لذلک کان سلوکه أشقّ من سلوک الأوّل. لأنّه ینطوی علی التنازل عن "أنا" الموهومة التی علی هدیها یسیر سالک الطریق الأوّل فلایزداد ضلال فوق ضلال. وإنی لأعلم أنکما ستختارون الطریق الأوّل؛ لأنّه یبدو أکثر إغراء من الثانی بما یثیره من اعتزاز فی نفسیکما باستقلال ذاتکما عن ذاتی وباتکالکما علی نفسیکما لاعلیّ.» (نعیمه، یا ابن آدم، ۱۹۷۳م: ۱۷۵ـ۱۷٤) فی رأی نعیمه، عندما یتعلم الإنسان کیف یعاشر الناس ویعیش معهم دون أیّة هواجس فعندئذ یکشف له أوّل الطریق إلی المعرفة.

www.SID.ir

إنه يرى عندما يخضع الإنسان للمعرفة ويستسلم لها فهذا الخضوع دالٌّ على حريّته وعدم عبوديّته. وعندما يصل إلى المعرفة والفهم فعندئذ يشعر بالحريّة القيّمة التى تكون «ثمرة نادرة تنبت على شجره نادرة تدعى الفهم.» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ١٠٤) كلّ من سار على الدرب وصل، فلانجد صَرح الحريّة دون المعرفة، ولانجد صرح المعرفة خالٍ من الحريّة. نعيمه يحبّ نفسه حبّا كثيرا لأنّه يحبّ الحياة وفى رأيه لاقيمة للحياة إلا بما تشتمل من الطموح إلى المعرفة والحريّة والخير والعدل والجمال. إذ الحريّة هذه تعطى الحياة معنى. فالحياة دونها هى سجن مظلم. «أن الحكيم لايعرف للحياة غير معنىً واحد. وذلك معنى الحريّة. فحيث لاحريّة لاحياة. وكلّ ما يحدّ من حريّة الحكيم هو موت له.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٨٠) فالإنسان لايزال يبحث عن حياة بعيدة عن الحرب، فلهذه الحياة طريق وهى الحريّة، وفى رأيه، الحريّة روح الحياة، فالحياة بغير الحريّة كالجسد دون الروح: «أنّنا لاننفكّ نتشدّق بالحريّة وبالسلم إذ نحن نقيّد الإنسان بالسلاسل فندفعه دفعا على الحرب. لأنّ الإنسان لايتعشّق شيئا تعشُّقه للحياة. والحياة بغير حريّة كالجسد بغير روح.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ١٤٨)

يجب على الذى يهدف الحريّة أن تكون له إرادة الحرّ؛ لأن الإرادة التى لم تكن الحرّ وقد تكون فى قيد الشهوات والأهواء؛ ولاتستطيع أن تهدف الحريّة وتصل إليها، «لاتكون الحريّة بغير إرادة الحرّ.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٨٤) الإنسان ذو عقل وشعور فهو يستطيع عن طريق هذا السلاح الحاد اختيار أفضل الطريق من الطرق التى تجعل أمامه فى سبيل كماله وحياته المثلى.

الحريّة أفضل الآمال وأسمى الطموحات التى يتمنّى بها الإنسان، مَن يتذوّق الحريّة يوما يتذوّق الألوهة. «والألوهة تعنى معرفة كلّ شىء والقدرة على كلّ شىء» (نعيمه، النور والديجور، ١٩٧٣م: ٩٩)، فعندما يجد الإنسان طريقه إلى النفس يجد طريقه إلى اللّه أيضا. فمعرفة النفس تؤدى إلى معرفة اللّه. الذى يملك على نفسه جدير بتاج الحريّة التى من ثمرتها الطمأنية والهدوء. وهكذا الاعتقاد بالله لايبعد الحريّة عن الإنسان بل يرتقى روح الحريّة فى الإنسان، فى الحقيقة، عندما يكون الإنسان حرّا يستطيع اختيار الله وهذا الاعتقاد والاختيار يُساوى الحريّة دون أىّ جبر. يقول نعيمه: «غاية [الإنسان] من

Archive of SID

www.SID.ir

وجوده معرفة نفسه. ومعرفته لنفسه تعنی معرفته الله. ومعرفته الله تعنی معرفة کلّ شیء. ومعرفته لکلّ شیء تعنی القدرة علی کلّ شیء والإنعتاق من کلّ قید وحدّ.» (نعیمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ١٤٤ـ١٤٣) إنه یری معرفة الله فی الإنسان هی نقطة الدائرة من الحیاة. عندما یصل الإنسان إلی الحریّة والمعرفة یستطیع أن ینمو ویتقدّم. وکما أشرنا سابقا؛ هذه الهدف الأعلی فی حیاة الإنسان لاغیر، قال الله تعالی: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩ـ١٠) کما یعتقد نعیمه: «هدف الإنسانیّة من وجودها هو معرفة کل شیء والقدرة علی کلّ شیء» (نعیمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٤١)، فتزکیة النفس وتهذیبها تدفع الإنسان إلی معرفة الله.

وهکذا المعرفة والوعی طریقان إلی الحریة الکاملة فجدیر بالإنسان أن یزیل ضباب الجهل والشک عن آفاق نفسه ویسیر فی سبیل المعرفة المؤدیة إلی الحریّة المثلی.

ب) الإیمان

قطعُ طریق الحریّة صعب جدّا، فالذی یسلک هذا الطریق الموحش یحارب فیه الأهواء التی خیَّمت علی قلبه ویساعده فی هذه الحرب سلاح الإیمان لأنّه أقوی من کلّ سلاحٍ حدیدیّ وأقطع منه، کما یقول نعیمه فی هذا الإطار: «إن سالک ذلک الطریق لیشعر بأنّه أقوی من الزعازع والزلازل. وهو المحارب الذی لاینام علی الضیم ولاتُفَلّ له عزیمة. أمّا أعداؤه فلیسوا من لحم ودم. إنّهم الشهوات السّود التی تخیّم علی قلبه. فهو، إذ یسعی إلی الحیاة والحریة، لایعتمد فی الدفاع عنهما علی سلاح من الحدید والنار؛ لأنّه یعلم أن الحدید یفلّه الحدید، والنار تأکلها النارة ولکنه یتسلّح بالإیمان الذی هو أقوی من النار وأمضی من الحدید بما لایُقاس. ومن کان ذلک شأنه من حیاته کان ثابتا فی الزمان والمکان وثبوت الحیاة» (نعیمه، فی مهب الریح، ١٩٧٢م: ٣٢)، فالذی یتسلّح بالحریّة له قوة لاتصاب بالتغییر والزوال. وهذا الإیمان هو الهبة التی تعطی الإنسان لمحاربته النفس وظلمتها وآماله الکاذبة الواهیة. عقل الإنسان وإرسال الأنبیاء والکتب السماویة کلّها یدّل علی الاختیار وإرادة الحرّ التی أعطاها الله الإنسانَ کما تدّل هذه الآیة علی هذا المهمّ: ﴿لَوْشآءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدى﴾ (الأنعام: ٣٥) فالإیمان

www.SID.ir

مقدمة الحريّة ودون الإيمان لانرى لونا من الحريّة والذى يكون حرّا لايُصاب بالعبوديّة وبالعكس الذى الذى يعبد ما فى قلبه مِن الأهواء ليس بحرّ.

«إنّ المؤمن يستطيع كلّ شىء، هذا كلام لا وشى فيه ولاتنميق. وهو أبعد ما يكون عن المبالغة. إنّه الحقيقة العارية، السافرة. فالإيمان هو الكنز الذى إذا اكتشفه الإنسان فى قلبه بات فى غنىً عن كنوز الأرض كلّها، وباتت له القدرة على التحكّم بالطبيعة وبجسده الذى هو بعض من الطبيعة.» (نعيمه، من وحى المسيح، ١٩٧٢م: ١٧٨) فكل من يتسلّح قلبه بسلاح الإيمان فهو لايحتاج إلى تعلّقات الدنيا؛ لأنّ هذا القلب المؤمن هو الحرّ فلايحتاج إلى كنوز الأرض، والقلب الذى يشعر بالإيمان لقلب تنهار من حوله الشدائد، ولاينهار بالشدائد. فالإيمان الحىّ النابض هو المعجزة الكبرى التى يوصل الإنسان إلى الحريّة.

أنواع هذا الإيمان عند نعيمه نوعان: الإيمان الأعمى، وهو الإيمان الذى يبعثه الخوف فى نفس المؤمن ويثرثر به اللسان, ولايمسّ شغاف القلب وهو أضعف الإيمان. ولكنّه خير من اللاإيمان. يرى نعيمه أنّ الخوف والإيمان نقيضان اللذان لايجتمعان. أمّا الإيمان المبصر فهو حصيل التأمّل العميق فى بحر الحياة اللامتناهى. ومن شأن مثل ذلك التأمّل أن يبصر قلب الإنسان يفتحه أمام النوايا الطاهرة فتملأه محبة وخير وسخاء وأن يفتح فكره لمعجزاتها فتملأه دهشة. والإيمان الأعمى فى الواقع عدوّ الإيمان ومواهب الإنسان. إنّه إيمان الشفاة دون القلوب. كل إيمان لاتقدم على الوعى والمحبّة هو تخدير للإيمان والإيمان المخدّر هو أشدّ خطرا على الناس من العقل والمخدّر والضمير المخدّر (المصدر نفسه: ١٧٥)، فكثيرا ما يستحسن نعيمه الإيمان المبصر على الإيمان الأعمى لأنه مساعد الإنسان فى سبيل المعرفة إلى الحريّة وهذا الإيمان هو السلاح القوى الذى لم يزل ولايزال مستسلما أمام الدهر.

والزمان الذى يسلّح بالإيمان لايفقد حريّته الروحيّة ولايسيطر عليه أىّ خوف إلّا خوف الله. فالإنسان المؤمن هو الإنسان الحرّ بمعنى الحقيقى للكلمة، «مَن كان أسير الله كان حرّا من غير شك.» (نعيمه، ١٩٧٥م: ٢٢٨) فليس جدير بالإنسان أن يكون عبدا لأحد إلا الله وهى الحريّة نفسهما. وأما المحبّة فهى طريق الوصول إلى هذا الإيمان

Archive of SID

www.SID.ir

عنـد نعیمه؛ کما یقول: «لا الإیمان یقوم بغیر المحبّة. ولا المحبّة تقوم بغیر الإیمان. فکأنهما التوأمـان المتلاصقان لاحیـاة للواحد إلّا فی حیاة الآخر.» (نعیمه، من وحی المسـیح، ١٩٧٢م: ١٨٤)

وفی النهایة نشـیر إلی الإیمان الذی یدعو إلیه نعیمه، فهو غیر الرهب والفقر وقبول الذلّة والهوان بل هو القدرة والشـجاعة والکنز الروحی، کما یقول: أمّا "الإیمان" الذی دعـوت إلی اسـتعادته والاعتصام به فهو غیر الخنوع والاستسـلام والخوف والقناعة بالذّل والفقر والمسکنة. إنّه القدرة التی تدرک حدود العقل فتتخطاها إلی حیث تتکشّف الحیاة عن ثروات روحیّة أین منها ثروات الذهب الأصفر والأبیض والأسود؟» (نعیمه، ج٢، ١٩٧١م: ٢٠٠)

عوائق الوصول إلی الحریّة

لکل إنسـان هدف فی حیاته, ولاتخلو الأهداف من الصعوبات والموانع مهما کانت سـهلة، فعندما یقصد الإنسان الحریّة کالهدف الأفضل فی حیاته, فهذا الهدف لیس بعیدا عن المشقّات والموانع. إنّنا بعد دراسة آثار نعیمه استخرجنا هذه الموانع فی سبیل الحریّة وقبل أن نقوم بها، نقول مادام الإنسان یعیش فی حاجات جسده وهی تتکاثر باستمرار، فهو عبد لحاجاته بعید عن الحریة. عندما صار الإنسان أسیر الدنیا وظواهرها الکاذبة فیبتعـد عن هدفـه الحریّة، فیری نعیمه: «من خدم الدنیا لا لأجل الحقّ بل طمعا بما فیه مـن ملذّات أصبح عبیدا ذلیلا لها وظلّ بعیـدا عن حریّة الحقّ» (نعیمه، فی مهب الریح، ١٩٧٢م: ٢٦)، فخادم الدنیا عبد لها بعید عن طریق الحریّة.

العوائق الرئیسة فی سبیل الحریّة

الشهوات الخمس

یقول نعیمه: «من زمان دفنتُ خمسـا من شـهواتی: شهوة السـلطان، وشهوة الغنی، وشـهوة النساء، وشهوة الشهرة، وشهوة الخلود» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٧٦)؛ وأمّا شـهوة الخلود فلایستطیع أحد السیطرة علیها. وهذه الشهوة هی عامل النشاطات والحرکات فیهم. ومن هذا المنظر هذه الشـهوة من الصفات الحسـنة وحتی تستطیع أن

www.SID.ir

توصل الإنسان إلى الحريّة فى حياته فلاتعدّ من الموانع. وأمّا شهوات الأربع الباقية:

الف) شهوة السلطان

يعدّها نعيمه من الصفات الرذيلة التى تمنع الإنسان من الوصول إلى الحريّة خاصّة الذين يتنافسون ويتخاصمون للوصول إليها بطرق غير الصحيحة والوسائل الشيطانيّة كالجدال والقتال وضروب الخداع والكذب والنفاق. فعلى الإنسان أن لايعتنى بالجاه والثروة والسلطة ومغرياتها لأنّ الذى يحرص الوصول عليها فهو إنسان مسجون.

ينتقد نعيمه جهل العالم وعدم فهمه، فالعلم يسعى بإخفاء هذا الجهل وعدم الفهم عن طريق السلطة الواهية الكاذبة؛ السلطة التى لاتنفكّ تبرم معاهدات الهجوم والدفاع مع القوّة الزائفة. والاثنتان معا تسلّمان قيادتهما إلى الرعب والخوف. هكذا سير السلطة فى العالم, وهذا سبب دفع الجزية فى العالم بسبب الجهل، فيرفض السلطة العالمية وأصحابها لأنّهم وأعمالهم مانع فى طريق المعرفة والحريّة والعدالة. وفى النهاية نشير إلى صلة نعيمه بالسياسة كما يقول نفسه: «بينى وبين السياسة يا صاحبى مثل ما بين الزيت والماء وإذا أنا ربحت النيابة والوزارة خسرت نفسى، وهدمت فى لحظة ما بنيته فى سنين. ونفسى أعزّ لدىّ من أىّ منصب سياسى. والذى بنيته أحبّ إلى قلبى وأجمل فى عينى من أن أضحيّه فى سبيل نيابة أو وزارة.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩٠)

ب) شهوة الغنى

الحرص ينشأ من حبّ الجسم فيدفع الإنسان نحو الحيوانيّة لأنّ الحريص هو كالشيطان. الحرص والطمع فى أمور الدنيا وحبّ الثروة فوق رفع الحاجات الضروريّة حاجز أمام الوصول إلى الحريّة كما يقول نعيمه: «خازن المال خزانته فارغة.» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٤٥) المال فى رأيه عدوّ ما من صداقته بدّ. ذلک لأنّنا خلقنا حولنا جوابات فيه المال ذا سلطان لايدانيه أىّ سلطان. فعندما يحرّر الإنسان من سجن المال والثروة فعندئذ يستطيع أن يجد الله فى نفسه ويعرفه وهذه المعرفة توصله إلى الحريّة.

نعيمه يخاف من المال، لأنّه خالق الحروب والنزاع، كما يعتقد أن الذى يغرق فى المال والثروة يفسد ضميره ويزيل صفاته الحسنة الكريمة فى ذاته. الذى يغوص فى الغنى

Archive of SID

www.SID.ir

والثـروة یجعل المال معبوده الذی لایقبل شـریکا فی عبادتـه فهکذا کلّ ما فی العالم من الغذاء، والماء، والثوب، والدواء والنور والهواء وسـائر حاجات الإنسـان کلّها مخلوق المال لاشیء آخر. إنه یری أن «المال شحیح بخیل أکثر ممّا تصوّره فی الأرض.» ویقول: «أنّـنی ما تعبدّت یوما للفلس، ولا مکّنته من قلبی وفکری، ومن زمام حیاتی. بل کنت، وما برحت، أقنع بما یأتینی منه "جزاء" عمل أعمله ولاأخجل به أقمته لها فی نهایة ذلک الطریـق. إمّـا إن تکون لی ثروة طائلة فأمر ما تمنیتـه فی أیّ بالأدران والرزایا، إلا إذا طهرّته نیّة صالحة وعمل صالح.» (نعیمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩١)

بالنظـر إلی هذه الرؤیة لنعیمه فی المال والثروة، یعتقد: «الفقر لیس عارا, وإنما العار فی الذّل والاسـتکانة للفقر. والفقر دون الذلّ والاسـتکانة أعظم مدرسـة فی الأرض.» (نعیمـه، ١٩٩٣م: ١٠٩) إنه یـری «زوال النعمة بعض من دوامهـا.» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٨٩) لأنّ النعمة والثروة عدوّ نفس الإنسان عندما لم یستحسن الإنسان استعمالهما. جدیر بالإشارة إلی قناعته فی حیاته الساذجة البعیدة غیر المخدوعة لمظاهر الدنیـا عندما یقول: «فقدت محفظة نقـودی, فقال لی قائل: لعلّها هی التی فقدتک حالما اهتدت إلی من هو أحق منکَ.» (المصدر نفسه: ١١٦) «حیث یکون کنزک یکون قلبک. لذلک إذا شـئتَ أن لایذهب قلبـک بذهاب کنزک فلاتکنز لک مـا هو عرضة للتلّف والضیاع: «لاتکنزوا لأنفسـکم کنوزا فی الأرض حیث یرعی السـوس والعثّ وینقب اللصوص فیسرقون. بل اکنزوا لأنفسکم کنوزا فی السماء حیث لایرعی السوس والعثّ ولاینقب اللصوص فیسرقوا.» (نعیمه، من وحی المسیح، ١٩٧٢م: ٨٧)

فی خاتمـه هذا البحث نقدّم الـکلام القیمّ الذی ورد فی نهج البلاغة فی رفض ظواهر الدنیـا الزائلة: «لاتجزعوا مِن ضَرّائها وبؤسـها، فإنّ عزّها وفخرهـا إلی انقطاع، وإنّ زینتها ونعیمها إلی زوالٍ، وضرّاءها وبوسـها إلی نفـاد، وکلُّ مدة فیها إلی انتهاء، وکلُّ حَـیّ فیها إلی فناء.» (الإمام علی (ع)، خ٩٩: ١٦٥) فملذّات الدنیا لیسـت إلا ظواهر خادعة فیجب علینا نبتعدها ولانجعل أنفسنا أسیرها.

ج) شهوة النساء

هذه الشـهوة میل فطری فی وجود الإنسـان وعندما تحقّق فی إطار العرف والشرف

www.SID.ir

شـــيء جيّد، أما عندما لايتوجّه الإنسان بهذا الإطار ويهدف شهوة النساء بقصد المتعة فعندئذٍ هو أسيرها ويكون فى قيد أميال نفسه الرذيلة فينحرف عن طريق الحريّة. «وأمّا الشـــهوة الجنســـية فقد تحوّلت بالموت إلى شـــيء جميل جدّا ـإلى زنبقة بيضاء، هيفاء» يرمـــز بها نعيمه إلـــى العفّة (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٨٩)، فالعفة هى أســـاس الحبّ ودرع لها، والخضوع أمام هذه الشـــهوة يقتل الحبّ العفيف. فى رأيه العلاقات الجنســـيه مصدر المشكلات والأزمات فى العالم. إنه يقترح بالرجل أن يعرف قلب المرأة وقيمتها، فعندئذٍ يســـتطيع أن يعرف قلبه ويقول له: «الرجل الذى لايحاســـب نفســـه أدّق الحســـاب عن علاقاته بالمرأة تحاسبه الحياة أقسى الحســـاب عن استهتاره بمقدّساتها، وتدنيسه الإناء الطاهر الذى اختارته مســـتودعا ومرخما لبذارها.» (نعيمه، ج١، ١٩٧١م: ٢٧٣) أعنف الشـــهوات عنده هو شهوة النســـاء لأنّ الذى تسيطر هذه الشهوة السوداء على قلبه فهو ليس بحرّ؛ لأن قلبه وروحه فى أسر هذه الرذيلة. إنه يعتقد أن الزواج «ليس تزاوج أفكار وقلـــوب فقط. بل تزاوج أجســـاد كذلک. وأقرب الزواج إلى الســـعادة ما ارتكز على تجاذب فكرىّ وقلبىّ وجســـدىّ، لاعلى واحد من هذه فقـــط...» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٣١٧) فعندما يخلو قلب الإنسان من هذه الشهوة، فهو يستطيع أن يسير فى طريق الحريّة.

د) شهوة الشهرة

نعيمه لم يكن رجلا سياسيا أو اقتصاديا بل كان أديبا كاتبا عاش حياة ساذجة بعيدة عن الإكثار فى حاجات العيش وإن طلب الشهرة فى حياته فهو فى مجال حياته الأدبيّة, ولكن هذه الحياة ليســـت بمجرّد كســـب الشهرة فقط، كما يقول نفسه: «أمّا شهوة الشهرة فقـــد كان لها فى أوّل عهدى بالكتابة مركز الموجّه الأوّل والقائد الأعلى أقرانى يلازمنى بشكل عنيف، فلا أجرؤ على البوح به لأحد فى الناصرة. وتبلور وتركّز فى السنوات التى أمضيتها طالبا فى روسيّا. ... ولم يبقَ شكّ عندى أن الميدان الذى كان يغرينى أن أكسب فيه شهرتى هو ميدان الأدب وحده. (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩١)

إن الشـــهرة عندما تُطلَب طلبا كثيرا تتبدّل مانعا فى سبيل حياة الإنسان لأنّها تدفعه نحو الأســـر فى ســـجنها. فيذهب أن الشهرة شىء له زوال. فليست الشهرة شيئا أن يحبّها

www.SID.ir

الإنسان حبّا کثیرا؛ لأنّه یمکن زوالها فی کل دقیقة وکل ثانیة. یقول نعیمه فی کلامه القصار: «الکبریاء والذلّ توأمان متلاصقان» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٢٠)، فالذی یغرق فی بحر الشهرة دون شکّ یُصاب بأمواج الغرور والتکبّر وفی النهایة یصاب بالذلة والهوان وموت الروح بید هذه الشهرة القاتلة. والذی کان أسیرا فی ید هذه الشهوات لیس إنسانا حرّا لأنّه بعید عن الفضائل الأخلاقیّة، کما یقول أحمد أمین: إن شهوات النفس غیر متناهیة فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها فیصیر الإنسان أسیر الشهوات لاتنقضی وعبد هوی لاینتهی، ومن کان بهذه الحال لم یرج له صلاح، ولم یوجد فیه فضل. (أمین، ١٩٦٩م: ٢١٣ـ٢١٢) فأفضل الطریق فی حیاة الإنسان أن یهتم بهذه الشهوات فی حدود المعقول وفی إطار الأخلاق. ومحاربته أهواء النفس تؤدی إلی اقترابه من السلام والأمنیة. وفی نهایة هذا البحث نشیر إلی هذا الکلام: «ضابط نفسه کراکب الفرس الذلول یقصد حیث أراد فیوجهها کما یشاء، ومن لم یضبط نفسه کراکب الصعبة، لایسیِّرها کما یهوی، ولایصل إلی غرضه بالسیر کما تهوی؛ فی ضبط النفس حفظ الصحة وطمأنینة العقل والسعادة والحریة وسلطان کسلطان القائد علی جنده أو الربان الماهر علی سفینته.» (أمین، ١٩٦٩م: ٢١٩)

وبعد التطرق إلی هذه الشهوات نذکر بعض الصفات الرذیلة التی تعرقل الإنسان فی سبیل وصوله إلی ذروة الحریّة:

الحسد

الحسد هو الصفة السیّئة التی یغطّی قلب الإنسان ویبعده عن الصفاء والصداقة کما روی عن النبی (ص): "الحسد یأکل الحسنات کما تأکل النار الحطب". یعتقد نعیمه هذه الرذیلة الأخلاقیة بدایة للرذائل الأخری کالغضب والغرور والظلم والکثیر من الصفات السیّئة التی أشدّها الغضب. وأما کلامه القیمّ حول هذه الرذیلة فإن «للحسود ألف عین. ولکن فی کلّ عین ألف جمرة» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٤١)، فهو ینهی الحسود عن الحسد؛ لأنّه النار المشتعلة التی تحترق صاحبه قبل أیّ شخص. هذه الرذیلة مانع فی سبیل الحریّة والمعرفة والإیمان الحقیقی وسبب الجدال بین الناس. إنه فی الحقیقة یمنع الإنسان أن یکون حرّا لأنّه فی قید حسده الذی یؤذیة؛ فلایستطیع أن یکون حرّا.

Archive of SID

www.SID.ir

الجهل

الجهـل هو عدوّ قويّ أمام الحريّة، «حيـث يكون الجهل لايمكن للحريّة أن تكون.» (نعيمه، الآباء والبنون، ١٩٧٢م: ١٣١) كما أشـرنا سابقا أن المعرفة طريق الوصول إلى الحريّة ولكن عندما لايعرف الإنسـان نفسـه، لن يعرف خالقـه الله وعندئذ هذا الجهل مانع أمام سيره فى سبيل الحريّة وعندما يحارب الإنسان هذا الجهل ويعرف الله يستطيع أن يتحـرّر. الجهـل ـ لو عرفه صاحبه. هـو الطريق إلى المعرفة، فالجهـل مانع الحريّة ومحاربته طريـق الوصول إلى الحريّة. يعتد نعيمه الجهل رذيلة تثير نار الغضب والتكبّر والغـرور، كما قال الله تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَـدَّكَ لِلناسِ وَلا تَمْشَ فِي الأَرْضِ مَرَحاً اِنَّ اللّهَ لايُحِـبُ كُلَّ مُختـالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمـان: ١٨) فالتكبّر من الصفات السـيئة التى يهلك الإنسـان ويظلم قلبه كما نرى هذا الأثر السـوء منذ بداية خلق الإنسـان عندما تكبّر إبليس ولم يسجد أمام آدم فأصاب بدعاء الناس عليه، كما قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ إسْجُدُوا لِآدَمُ فَسَجَدُوا إلّا اِبْليسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ﴾ (البقرة: ٣٤) فعلى الإنسان أن يهرب من الجهل لا من الجاهل فيذهب نعيمه أمام الجاهل مذهب التساهل ويوصى الإنسـان بمداراة مع الجاهل. عندما يقـول: «لاتهربوا من الجاهل واهربوا من الجهل. لأنّكم عندما تهربون من الجاهل لاتهربون إلا من أنفسكم. أما هربكم من الجهل فهـو اقتراب من المعرفة.» (نعيمه، زاد المعـاد، ١٩٧٢م: ٥٩) الجهل عامل إثارة النزاع والحرب، والاختلاف والظلم، بينما دون الجهل، يعيش الإنسان فى عالم السّلم والتفاهم والصداقة، إنه يرى أن «قلبا جاهلا لقلب مزدوج. والقلب المزدوج يخلق عالما مزدوجا. والعالم المزدوج يولّد أبدا نزاعا وحروبا. بينما القلب الفاهم قلب موحّد. والقلب الموحّد يخلـق عالمـا موحّدا ـ والعالم الموحّد عالم سـلم أبدى. إذ لابـدّ للحرب من خصمين.» (نعيمـه، ١٩٧٥م: ٢٣٣ـ٢٣٢)، فالجهـل عامل القلب المزدوج غـير الموحّد الذى يقود الإنسان إلى شفير الهلاك. الذى يكون جاهلا سيكون أسير القلق والخوف والنزاع وفى النهاية الموت, وهذه كلّها ليست إلّا ثمار الجهل.

إن الجهل منشـأ الكثير من الأمراض الاجتماعية، واهتمام الكثير من الدول زوال هذه الأزمة. يقترح نعيمه على الإنسـان بالخلاص من الجهل اقتراحا مباشـرا صريحا

Archive of SID

www.SID.ir

وهو: «یا ویل الناس من التقالید وتعاویذ التقالید!»، و«إنّنی أعیذکم من التقالید وسلطانها.» (نعیمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ١٣٠و١٢٨) فهو یُعَدّ التقالید والسنن الماضیة سدا منیعا أمام محاولة الإنسان للوصول إلی المعرفة والحریّة؛ لأنّه یری هذه التقالید عامل أساسی یؤدی إلی الجهل المطبق, ویدعو الإنسان فی هذا المجال إلی التجدید. کما یدعوه إلی الحرب مع أعداء نفسه وفی رأیه أبغض هؤلاء الأعداء هو الجهل. الإنسان الجاهل لایستطیع التمییز بین الحقّ والباطل وبین الصدق والکذب, وهکذا سیبقی فی جهله إلا عندما یتحرّر من قید التعصبّات والتقالید العمیاء, ویری لیس فقر أعظم من الجهل وعدم المعرفة والفهم. وفی نهایة هذا نشیر إلی کلام نعیمه حیث یقول إنه «ما من مصیبة إلا الجهل.» (نعیمه، مذکرات الأرقش، ١٩٧١م: ٤٧) فالجهل هو عامل الأزمات والمصائب فی حیاة الإنسان.

الظلم

یدعو نعیمه الإنسان إلی البعد عن ظلم الظالمین. وینزع نزعة التسامح فی هذا المجال: «لاتکرهوا الظالم، واکرهوا الظلم. لأنّکم إن کرهتم الظالم کنتم ظالمین مثله. وإن أحببتموه عرفتم العدل ورددتم الظالم إلیه» (نعیمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٥٩)، ولکن فی رأینا لیست المداراة مع الظالم بجدیر؛ لأنّها توفّر الطریق لظلمه. ویتحدّث عن الظلم الذی ارتکبه الإنسان فی الحروب, ویری لیست هذه الحروب ظالمة بل الظالم هو الإنسان. الظلم یظلم قلب الإنسان, ویسود روحه بحیث لایجد طریقا إلی الحریّة؛ لأنّه یبقی فی سواد ظلمه. وعندما یخیّم الجور علی الإنسان وأعماله فهو قاسی القلب ولایعرف المحبّة والعدالة فهکذا هو أسیر بید ظلمه ولیس حرا.

الکذب والخیانة

أشد ما یؤلم روح نعیمه ویعذّبه هو الکذب وعدم الصداقة کما یقول نفسه: «یؤلمنی أشد الألم أن ینزلق لسانی روحی، إلی الکذب.» (نعیمه، الیوم الأخیر، ١٩٧٢م: ٩) کما یقول: «الکذب أحبولة لاتصطاد إلا الکذوب.» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٣٣) فکما یقترح الأستاذ أحمد أمین هناک طریقة واحدة للصدق وعدم الکذب وهو: «أن

www.SID.ir

يقول الإنسان الحق، كل الحق، لا لشيء غير الحق.» (أمين، ١٩٦٩م: ١٩٩) وعندما يكذب الإنسان غيره كأصدقائه وأهله فهو يكذب نفسه أيضا، فعلينا أن نهرب من هذه الصفة السيئة. فأفضل الفضائل وأحسن الصفات هو الصداقة والبعد عن الكذب.

وأما الخيانة فهى جهيض الأمانة. (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٧٢) فالكذب والخيانة صفتان رذيلتان تبتعدان روح الصدق عن نفس الإنسان وتصعبان سيره نحو الحريّة.

وأمّا بعض نصائح نعيمه حول البُعد عن هذه الصفات الرذيلة:

«لاتحتقروا أحدا من الناس. فخير لكم أن تكونوا محتقَرين من جميع الناس من أن تحتقروا إنسانا واحدا. لأنّكم إذا احتقرتم أى إنسان احتقرتم الإله المشمول فيه. وإذا احتقرتم الإله المشمول فى أى إنسان فكأنّكم احتقرتموه فى نفوسكم. وإن أنتم احتقرتم الإله المشمول فيكم ـ وهو دليلكم إلى الميناء، إلى الإله الشاملـ فكيف ترجون أن تبلغوا ميناءكم؟» (نعيمه، ١٩٧٥م: ٣٠٣)

إنه ينهى الإنسان عن البغض قائلا: «وأنتم إن تخلّصتم من ضرس مسوّس باقتلاعه فكيف تقتلعون قلبا نخره سوس الحسد أو البغضاء أو الخيبة؟» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٦٧) يؤيد نعيمه ضربا من البغض وهو البغض على ما فى الناس من ضعف وإثم. فعلى الإنسان أن ينزع ثوب البغضاء لأنها «تفصلكم عن الإنسان أو الشيء الذى تبغضون. ومادمتم منفصلين عن أى شيء أو أى إنسان بقيتم منفصلين عن الله الكائن فى ذلك الشيء وذلك الإنسان» (المصدر نفسه: ١٣٩)، فالبغض يبعد الإنسان عن الله لأن الذى يسود قلبه بالبغض لايعرف الله.

إنه يرى كلّ هذه الرذائل «عقالات للروح وحجارة رحى فى عنقه. والله ليس فى شيء منها. أمّا السبيل إلى الله فسبيل التعرّى» (المصدر نفسه: ١٣٩)؛ فعلى الإنسان أن يهرب من الشيء الذى ليس فيه لون من الله.

القلب المطمئن يجد طريقه ويسلكها دون الرعب، ولكن القلب الخائف لايستطيع الشعور بالحريّة لأنّه فى قيد خوفه. وأمّا نكبات الحياة فى رأى نعيمه فهى: «أن نتنفس الهواء لنحيا ثم أن ننفث فى الهواء، سموم أحقادنا وأحسادنا وأطماعنا لنميت ونموت.»

Archive of SID

www.SID.ir

(المصدر نفسه: ۹۲ـ۹۱)؛ کما یقول: «هی النکبة أن تسقینا الأرض من عصیر قلبها الطاهر فنسقیها من دماء قلوبنا الممزّقة بشفار بغضائنا وأهوائنا.» (المصدر نفسه: ۹۲)

إنه بعد هذه النصائح القیّمة یتحسّر علی إنسان الیوم، فیقول: «وخطیئة هو اهتمام الإنسان بحاجاته الدنیویّة أکثر من اهتمامه بحاجاته الروحیّة. ...وخطیئة هو الریاء والدّجل والتظاهر بما لیس فی القلب وکأنّه من القلب فی الصمیم.» (نعیمه، من وحی المسیح، ۱۹۷۲م: ۷۲ـ۷۱)

إنه یعدّ هذه الموانع فی سبیل الحریّة من الأسباب الرئیسیة للحروب أیضا: ومثلما للحروب الدامیة أسلحتها الفتّاکة کذلک للحروب غیر الدامیة أسلحتها التی تفتک بالأجساد والأرواح معا، ولکن بطریقة بطیئة وغیر منظورة. ففعلها هو فعل الجراثیم الخبیثة فی الخلیّة الحیّة. من هذه الأسلحة: البغض، والحقد، والفسق، والحسد، والخداع، والنّفاق، والدهاء، والطمع، والجشع، وحبّ المجد والجاه والسلطان والمال.» (المصدر نفسه: ۲۵۸) الذی له نفس کبیرة یسیر فی سبیل العلّو والنبل والصفات السامیة: «من کان ذا نفس کبیرة کان أنبل من أن یغتاب أحدا من الناس أو أن ینمّ علی أحد من الناس. فالغیبة والنمیمة أقذار لایستطیب التغلغل فی أجوافها النتّنة والانتشاء بروائحها الکریهة إلا صغار النفوس. ...ومن کان ذا نفس کبیرة کان أبعد الناس عن التبجّح. والذی نفسه کبیرة لایکبر علی أیّ إنسان، ولایذلّ لأیّ إنسان. فهو یعلم أن کرامته لاتُصان إلا إذا هو صان کرامة الغیر، وإن کرامة تقوم علی مذلّة الغیر لمذَلّة فی ثوب الکرامة وشرفه أرفع من أن یکون ذلک الشرف الذی لایسلم من الأذی حتی یراق علی جوانبه الدّم. (نعیمه، دُروب، ۱۹۷۱م: ۷۹ـ۷۸) فیری جمال الحیاة فی الصدق والعفّة لا فی الکذب والفسق والتکبّر.

یعتقد نعیمه بأن الذی فی قلبه صفة رذیلة کالحقد والفسق وحبّ المال والسلطان والکذب والریاء، فله روح فقیر؛ کما یقول:

کل منافق أو سارق أو فاسق, فقیر.
کل غضوب أو حقود أو ناقم, فقیر.
کل حسود أو نمّام أو مُراء, فقیر.

Archive of SID

www.SID.ir

كل مزهوّ بمال أو جمال أو سلطان, فقير.
كل مغرور بأصله أو بفصله أو بعمله, فقير.
كل معتزّ بلقب أو وسام أو منصب, فقير.
كل من كان ذئبا فى جلد حمَل, فقير.
كل من أكل خبزه بعرق جبين غير, فقير.
كل من أذلّ جاره ليعتزّ، وأجاعه ليشبع, فقير.
كل من ركب هواه وجهل مبتداه ومنتهاه, فقير. (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٢٠٤)

فعندما يسير الإنسان فى سبيل اللّه سيراً خالصاً فطبيعىّ أن يبتعد عن هذه الموانع والصفات الرذيلة. فعندما الإنسان يصلح نفسه ويسير فى الطريق الصحيح يصل إلى قمّة الحريّة التى بذرها فى ذاته وعندئذٍ يستطيع إصلاح مجتمعه، فالمجتمع الصالح قائم على الأفراد الصالحين، و«الإنسان حر بالطبع، وحريته أعظم ما يملک. كل ما من شأنه أن يشلها هو إذن جائر. فإذا أردنا إقامة مجتمع عادل، وجب علينا اكتشاف شكل ترابط يتميز بصفتين: الأولى أن لن يحمى كل إنسان، الثانية أن لايعيق حرية أى فرد. (كريسون، ١٩٦٢م: ٢٤٨ـ٢٤٧) على الإنسان الذى يهدف الحريّة أن يبدأ طريقه بنفسه، ويطهّر قلبه من الآفات البشرية كالحسد والبغض والظلم والرياء والحقد والكبرياء. وبعد أن تغلب على تلک الآفات فتحلّ محلّها الفضائل والحسنات التى تؤدى إلى الرجاء والفهم والإيمان وفى النهاية تسهّل له طريق المعرفة.

النتيجة

قد دعا نعيمه إلى بناء المدينة الفاضلة التى من أهمّ أركانها الحريّة تحت سيطرة القيمّ الأخلاقية السامية. وفى رأيه أقدس الواجبات فى حياة الإنسان هو المجاهدة فى سبيل حريّة النفس.

إنه فى نزعته المثالية يتحدث عن الحريّة بمعناها الروحى المطلق بحيث يتصل كلامه عن الحريّة بكلامه على المعرفة، والإيمان والوعى والإرادة ومادامت هذه الحرية وسيلة يمكن بها للخلاص. هذه الحريّة التى يقصدها نعيمه ستحقق عن طريق معرفة الإنسان نفسه وعن طريق الإيمان. وبين المعرفة والحريّة صلة وثيقة بحيث هما لاينفصلان، كما

Archive of SID

www.SID.ir

الإیمان سلاح قویّ فی کسب الحریّة الروحیة.

وأما المعرفة فهی غایة حیاة الإنسان، وقصده منها هو معرفة النفس، ومعرفة الله، ومن یصل إلیها تحقق له الحریّة المثلی. إنه یری حریة الإنسان فی نفسه لا فی شیء آخر أو مکان آخر. وعندما یکون الإنسان طاهر القلب والفکر فعندئذ له نفس حر یستطیع السیطرة علی أفکاره وطموحاته.

إن الحریّة هبة إلهیّة قدّمت للبشر، ولایقدر أن یسلبها أحد, والجدیر بالإنسان أن یسعی فی صیانتها. والثورة علی الرکود والتقالید والقیود الأرضیة هی طریق النجاة والوصول إلیها.

إن شهوة المنزلة الاجتماعیة وشهوة الغنی وشهوة النساء وشهوة الشهرة من أهم موانع الإنسان فی الوصول إلی الحریّة، أمّا شهوة الخلود فیعدّها شی مُجید.

إنه یدعو الإنسان إلی الابتعاد عن الحسد والبغض والخوف والطمع وحبّ الدنیا؛ لأنها أعداؤه فی سبیل الحریّة. حیث یکون الجهل لیس للحریّة مجال فعلی طالبها أن یسعی نحو المعرفة لقَتلِ الجهل وعندما نهتمّ بأدب نعیمه فنراه منذ عرف الکتابة حتی نهایة عمره خدم المجتمع البشری فی سبیل الفضائل الأخلاقیة والنهی عن الرذائل الأخلاقیّة.

یمکن القول إنّه وصل فی حیاته إلی الحریّة الحقیقیة؛ لأنّه کثیرا ما ینادی بالقیم الأخلاقیة وینهی عن الرذائل التی هی موانع الوصول إلی الحریّة وعندما ندرس شخصیة هذا الأدیب الکبیر، یثبت لنا هذه الحریّة اثباتا.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

نهج البلاغة.

أمین، أحمد. (۱۹۶۹م). الأخلاق. بیروت: دار الکتاب العربی.

خفاجی، محمّد عبدالمنعم. (۱۹۸۶م). قصة الأدب المهجری. بیروت: دارالکتاب اللبنانی.

زکا، هدی فؤاد. (۱۹۶۲م). «المناحی الفکریة فی أدب میخائیل نعیمه» أطروحه الماجستیر. الجامعة الأمریکیة. بیروت.

الفاخوری، حنا. (۱۹۸۶م). الجامع فی تاریخ الأدب العربی. بیروت: دار الجیل.

Archive of SID

www.SID.ir

كريّســون، اندريه. (١٩٦٢م). تيارات الفكر الفلســفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث. ترجمة رضا، نهاد. الطبعة الاولى. بيروت: منشورات عُويدات.

المطهرى، مرتضى. (١٤٠٤ق). الإنسان والقدر. ترجمة التسخيرى، محمّد على. طهران: مركز إعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الإسلامى فى ايران.

مطهرى، مرتضى. (١٣٨٤ش). آزادى معنوى. ط٣٣. انتشارات صدرا.

نعيمه، ميخائيل. (١٩٧٢م). كرم على درب. ط٦. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والن

ـــــــــــ (١٩٧٣م). صوت العالم. الطبعة السادسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٢م). زاد المعاد. الطبعة السابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٣م). النور والديجور. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٢م). فى مهب الريح. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٢م). الآباء والبنون. الطبعة السادســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٢م). اليوم الأخير. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٢م). فى الغربال الجديد. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧١م). دروب. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٥م). مِرداد. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧١م). ســبعون فى ثلاث مجلــدات. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٤م). جبران خليل جبران. الطبعة السابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٢م). من وحى المســيح. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٩٣م). أبوبطّة. الطبعة العاشرة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧١م). مذكرات الارقش. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــ (١٩٧٣م). أحاديث مع الصحافة. بيروت: أ. بدران وشركاه.

ـــــــــــ (١٩٧٣م). يا ابن آدم. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة نوفل.

Archive of SID

www.SID.ir